اللغة والشعر

الدكتور نوري حمودي القيسي
كلية الآداب – جامعة بغداد
رئيس معهد البحوث والدراسات العربية – بغداد

للغة العربية تاريخ طويل وعريق يمتد الى ازمان موغلة في القدم ، قدم الشعب العربي الذي حفظ لها خصائصها المميزة ، واستجاب لقدرتها في التطور ، ووهب لها من قدرته ما جعلها لغة دقيقة وقادرة ومستوعبة . ومكّنها من المشاركة في التعبير عن أحاسيسه وفكره بشكل دقيق وليس المجال في هذه المحاولة مجالاً لامتحان عراقة اللغة أو سبر اغوارها أو الوقوف عند مقارنتها باخواتها السامية وغيرها من اللغات التي بقيت تعبر عن مشاعر الشعوب وتستجيب لنزعاتها المختلفة وتبرز انماط فعالياتها ، لأن المعروف في هذا المجال أنه لا يمكن ان تكون الحصيلة التي انتهت اليها اللغة إلا ثمرة من ثمار اجيال طويلة تعاقبت على استخدامها ، وواصلت تطوير أساليبها حتى اكتملت لغة متمكنة ومتميزة . تحفل باحكام الأعراب ، وتتميز بصيغ المشتقات . وتعرف باوزان الجموع المختلفة . وتحفل بالاوزان القياسية وتأخذ الحروف معانيها في الاستعمال ، والأفعال أزمانها في المباشرة والتحديد . ومن المعروف ان اللغة العربية التي استخدمها العرب قبل الإسلام كانت تمثل التوحد الفكري والعقيدي والثقافي بعد ان اصبح الناس ينهجون نهجها ، ويبتعدون عن بعض اللهجات التي بقيت عالقة بلغة التخاطب والاستعمال وهي محاولة أولى من محاولات الاحساس بالشعور الموحد الذي

يدخل الى نفس المتخاطبين حالة الارتياح والتواصل والتعاطف ، ولعل انتشار الاسواق وتجمع الشعراء والخطباء واقبال الناس من اطراف الجزيرة بمواسم تجارية وثقافية ولقاءات قومية تتقارب فيها المشاعر وتعرب النفوس عن دواخلها وتتقاسم همومها واحداثها . واقترانها بالاشهر الحرم التي يمنع فيها سفك الدماء وتناسي الاحقاد واسكات اصوات الشر ، كل هذه العوامل شاركت في خلق الجو المناسب لحياة فكرية موحدة ، وايجاد صيغة من التعامل الاخوي الذي تثيره العبارة الموحدة والفكرة المشتركة والصورة المتفق عليها .

وبقيت اللغة قادرة على تجديد مزاياها كلما احيطت بدراسة مستفيضة وتحليل مدروس وتعليل مقبول واجتهاد صائب ، وليس غريباً ان تقف الدراسات اللسانية والصوتية ومنذ العصور الأولى مبهورة امام عطائها الثر ، واسرارها الخفية ، وخصائصها الذاتية وان كثيراً من هذه الوجوه التي ظلت في نظر الباحثين شذوذاً أو نقصاً أو حاروا في تعليلها كانت تكشف عن مزايا في اصولها ، وخفايا مستقرة في جذورها ، ولوازم لا يمكن أن تكون بعيدة عن اسلوبها في الحديث أو الاستعمال .

فاللغة العربية كانت محوراً مركزاً من محاور التوحد ومقدمة من مقدمات الرسالة الإسلامية التي بشر بها الرسول الكريم صلوات الله عليه وفي الآية الكريمة « انا انزلناه قرآناً عربياً » ⁽¹⁾ اشارة واضحة الى اعتماد اللغة العربية في مخاطبة العرب بلسان يعرفونه وأسلوب يألفونه وصور تعودوا على سماعها وصيغ استقرت اشكالها في استعمالهم ، وهي اللغة التي نظم بها الشعر وكتبت فيها القصائد الطوال ، وهي سليلة مجد لغوي عريق ، وامتداد ثقافي موغل في القدم ، ثبتت جذورها في الوجدان ، وترسخت قواعدها في البنية التكوينية ، واللغة العربية لغة قومية ، وعنصر اساسي لهويتها الثقافية ومظهر من مظاهر

---

(1) القرآن الكريم . سورة يوسف الآية (٢) .

تجلّي عبقريتها الخاصة في مراحل تاريخها واكبت ابداع الفكر العربي واستوعبته عبر هذا التاريخ الطويل واحسنت التعبير عن اوضاعه في مختلف الاجواء والتقلبات وعاشت وجوهاً من الصراع . واذا كانت فضائل اللغة العربية واضحة في الاستخدام المتنوع والتعبير الدقيق فان الحسّ الشعري الذي توافرت له الشروط العروضية الاخرى كان فناً متكاملاً آخر احكمتْ فيه اللغةُ صياغتَها ، وهيأت له تراكيبها .

والمعروف ان الشعر العربي تتداخل في صياغته اعداد التفاعيل والقافية والوزن وتلاحظ هذه العناصر في بحوره وابياته وهو ما تميزت به اللغة العربية فأصبح خاصيةً من خواصها ، ولوناً من ألوان قدرتها التعبيرية لارتباطها بالموسيقى اللفظية التي تؤديها مخارج الحروف والحركات الاعرابية التي تولدها تراكيب الكلمات ومقاطع الجمل واشكال النهايات فكان الشعر الذي تمثلتْ فيه مشاعر الناس منذ الأزل ووجدوا في اغراضه استجابة لنزعاتهم ، وتنفساً عن هواجسهم وقد وُهب هذا الشعر من الاوصاف ما مكّنه من الاستعانة باجزائه عن كل حركة وباوزانه عن كل محاولة للاستعانة بايضاح التعبير أو التدليل عن الغرض أو تجسيد الفكرة ، وهو ما نراه في كثير من الاناشيد والاغاني والقصائد . فالأيقاع النغمي الثابت ، والاستمرار في الضغط على المقطع والوقوف عند حدود النهايات المختومة بالحرف أو الحرف والحركة أو الحرفين أو الثلاثة قد مهدت أمام الصوت فسحة للامتداد ، ومساحة للتعاقب والارتداد أو الاهتزاز . وهو ما نراه في اللزوميات التي تُصبح في بعض الأحيان تراتيل مترافقة ، وانغاماً متلاحقة تسحر القارئ عند قراءتها وتسبغ عليه من مقاطعها ما يجعلها قريبة من الأدوار الغنائية الرتيبة . وربما كان اختيار الشعراء للاوزان الطويلة وخاصة فيما يتعلق برواية الخبر المستفيض والحكاية المثيرة ، والواقعة التي توجب التفصيل في الجزئيات والحديث عن السيرة والملحمة من الأسباب التي حفظت لنا هذا الايضاح الذي ظل

يعطي ايقاع التغني بالمأثور التاريخي حجمه المطلوب ، ويحمل المستمع الى الانصات والاصغاء كما ينطوي تحته هدوء (التفعيلات) وتتوالى في اوزانه امتدادات الاصوات ، وانفساح الصورة المعبرة عن كل الدقائق المطلوبة في الحديث ، ورحابة الوزن التي وسّعت كل المعاني المتداخلة وتركت المجال للتفكير يتداخل في تراكيب الصور المتراكمة من خلال هذه الرحابة والرتابة .

فالشعر له لغة حيّة ، تتوافق فيه المفردات ايحاءً ، وتنسجم تعبيراً لتأخذ مداها في تحديد الصورة وتوثيق الجانب الفني المعبر عن الدواخل النفسية الموحدة ، وتحتفظ الفاظه بمواصفات لا نراها في الحديث النثري ، فتظل دفقاتها تتكرر في قنوات المشاعر ، وتندفع عبر سلسلة السنين الطويلة لتحمل الود والاحساس والعواطف وتنقل الآمال والمطامح . وهي في كل مرة تعبر عن حالة ، وتوحي بمظهر وتؤكد صورة ، وقد مُنحت الاوزان العروضية قدرة على التعبير المتميز عند اجتماع التفعيلات ، وتوحُّد المقاطع المتقاربة وايحاءات الانغام المقترنة بالعواطف والمصحوبة بالسلاسة والاضطراد .

فالوزن الشعري واللغة الشاعرة واللفظة المختارة تخلق الجو المناسب ، وتلهم الانسان احساساً متميزاً ، وتثير في دواخله ما يحمله على التعبير باشكال من الحركات ، والوان من الاشارات والترنم بما ينسجم مع الحالة الشعورية المثارة ، والظاهرة الانسانية المناسبة .

إن المقولة التي تؤكد ارتباط الغرض بالوزن لا يمكن أن تكون مقبولة في جمع الأحوال ، لأن الايحاء الذي تخلقه الحالة الحسيّة لا تقيّدها في المرحلة الاولى قيود محدّدة ، ولا تحول دون التعبير عنها اوزان لها صياغات تتوافق وقدرة التعبير أو جوانب التأثر أو توافق النغمة ، لأن الانسان عندما تُلمّ به حالةٌ لها جوّها المناسب ، ويتعرض لهزة عاطفية أو تأثرية وعندما تتحول العواطف الى موسيقى شعرية وألفاظ تعبيرية ، ومقاطع لها دلالاتها في نفسه

لا يمتلك هذا الانسان فرصة الانتظار للموازنة بين الحسّ والوزن وبين التعبير المتدفق والحالة الحادة وبين البحر الذي يستغرق تدفق هذه العواطف ، ولا يقدر على وضع نفسه في موضع الامتحان الذي يترك له الخيار في انتقاء القافية التي يريدها واهمال الأخرى التي لا يجد فيها جدوى التعبير المناسب ، وهي حالة يعرفها الشعراء وهم يعانون التجربة ، ويخوضون غمّار الاندفاع وراء اقتناص العبارة التي تستوعب عمق التجربة ، وتكون قادرة على تمرير هذا السيل الذي تراكم عاطفة ، واندفع حسّاً ، وتداخل صوراً وتراكيب ، وهي انسيابية متنظمة تتوالى فيها هذه المراحل المتنظمة التي أصبحت في عُرف الشاعر قاعدة لا تُخالف ، وحالة لا تتبدل ، واسلوباً من النمطية المتزنة في المعادلة الشعرية الصادقة . إن هذه الحالة هي التي تفرض نفسها على التجربة وتدفعها الى أن تأخذ المجرى المهيّء لها في العُرف الشعري . وهي التي خلقت الأعمال الجليلة ، والأبداع الفني المتميز ، والقصائد الخالدة التي عرفها الأدب العربي عبّر تاريخه الطويل .

وربما كانت بعض القصائد التي عُرفت في سياق المراحل التاريخية بموافقتها لأوزان معينة أو قواف محدّدة قد اثّرت في الحالة النفسية التي يعانيها صاحب التجربة الشعرية ، ووقعت في نفسه بايقاعاتها ووزنها وقافيتها وصورها موقعاً له دلالته ، وله تأثيره المباشر فتأتي التجربة الجديدة حافلة بالجوّ الذي تركته التجربة الأولى ، وتكون الحالة الثانية صدى للحالة الأولى ، ويُصبح الشاعر المتقدم هو المبدع ، وتتهاوى بقية التجارب الشعرية في دائرة الشهرة التي اكتسبتها القصيدة الأولى ، وهذا ما نراه فعلاً في بعض القصائد المشهورة في رثاء النفس كما هو الحال في قصيدة عبد يغوث بن وقّاص الحارثي ومطلعها (٢) .

ألا لا تلوماني كفى اللّوم ما بيا　　　وما لكما في اللّوم خيرٌ ولا ليا
أيا راكباً إمّا عرضتَ فبَلّغَنْ　　　نداماي من نجران ألاّ تلاقيا

---

(٢) المفضل الضبي . المفضليات ١/١٥٤ ــ ١٥٥ .

جزى الله قومي بالكلاب مَلاَمَةً   صَريحهُمُ والآخرين المواليا
أقول وقد شدّوا لساني بنسعةٍ   أمعشرَ تيم أطلقوا عن لسانيا

الى أن يقول [٣] :

وتضحكُ منّي شيخةٌ عبشميّةٌ   كأن لم ترَ قبلي أسيراً يمانيا

وتأتي قصيدة مالك بن الريب التي دخلت بعض أبياتها في مداخل الاساطير ، واختلطت بنوازع النفس وهي تعاني الموت والغربة ، وتتوزع بين الشوق والبعاد ، فتتارح أصداء الحياة القاسية دفقات شعرية متناغمة ، وتتوالى صيحات الفروسية والبطولة اصداءً متباعدة في متاهات الغُربة والحنين . تأتي هذه القصيدة لتشترك في النغم الأيقاعي الموحد لقصيدة عبد يغوث ، وتتداخل في لحن العزيف المترامي فوق ساحة الموت المحدق [٤] .

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً   بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركبُ عرضَهُ   وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
لقد كان في اهل الغضا لو دنا الغضا   مزارٌ ولكنّ الغضا ليس دانيا

وتأخذ أصداء هاتين القصيدتين بتلابيب الشاعر أفنون التغلبي ، فتندفع عواطفه حادّة ومريرة لتصب في هذا المجرى الذي تدفقت في طواياه عواطف عبد يغوث ومالك بن الريب ، فتأتي ابياته التي تدخل في اطار حدث الموت ومواجهته متوافقة وزناً وقافية وغرضاً فيقول [٥] :

ألا لستُ في شيْ فَروحاً معاويا   ولا المشفقاتُ إذْ تَبِعْنَ الحوازيا
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي   إذا هو لم يجعل لـه الله واقيا

ويستمر نفس الشاعر بهذه الانغام الحزينة التي اعطت هذا الضرب من القصائد رتابة الحزن المؤلم ، ورنّة الموت الشجية . ويقف جعفر بن عُلبة الحارثي

---

[٣] المفضل الضبي . المفضليات ١/١٥٦ .

[٤] شعراء امويون . القسم الاول /٤١ .

[٥] المفضل الضبي . المفضليات ٢/٦١ .

حفيد عبد يغوث بن وقّاص ليستذكر في أبياته فاجعة موت جده وهو ينوح ويتحسس قسوة الغربة التي عاشها وهو يجود بنفسه فالدفع ليكون في ذات الثار ويُصبح في نفس اللوّامة المريرة فيقول (٦) :

ألا لا أُبالي بعد يوم ٍ بسَحْبَل ٍ   اذا لم أُعذّبْ أن يجيء حِماميا
تركتُ بأعلى سَحْبل ٍ ومَضيقه ِ   مُراقَ دم ٍ لا يبرحُ الدهرَ ثاويا
أحقاً عبادَ الله أن لستُ راتعاً   صحاريَّ نجد ٍ والرياحَ الذواريا
ولا زائراً شُمَّ العرانين أنتمي   الى عامر يَحْلُلْنَ رَملاً مُعاليا
إذا ما أتيتَ الحارثيات فانْعِني   لهُنَّ وخبّرهِنَّ أن لا تلاقيا

لقد أدّى هذا النفس الشعري الواحد ، والتأثر الذاتي والانسجام النمطي في العاطفة الى تداخل القصائد واختلاط الأبيات ، وتدافع النسبة بينها وبين كثير من القصائد التي جاءت على هذا الوزن والقافية والغرض ، وهو تدافع قديم وتداخل عناصر المراحل الأولى من مراحل الأدب ، وان هذه الشهرة التي اكتسبتها قصائد عبد يغوث أو مالك بن الريب أو أفنون أو جعفر بن عُلبة أو غيرهما من الشعراء لا تعني أن قصائد الرثاء ذات القوافي اليائية المطلقة أصبحت اوزاناً صالحة للرثاء ، لاننا نعرف أن الشعر العربي قد استغرق هذا البحر والقافية في قصائد كثيرة عبّر فيها الشعراء عن اعجابهم بمملوحيهم ، وتحدثوا عن لواعج الشوق وما عانوه من فُرقة الأحبة ، ووجدوا فيه مسارب للتنفيس عن كُربهم وهمومهم وضياع الوفاء في عصرهم واغترابهم . وتكشف لنا فهارس الدواوين عن دخول معظم الأغراض تحت ظل هذه القافية والوزن ، وما أقوله في هذا الوزن يمكن أن أقوله في بقية الأوزان والأغراض التي حُشرت فيها أو وُضعت لها ، لأن الأحساس بهذه النظرة ، والايمان بهذه المقولة تجرُّ على الشعر العربي نزعة التعقيد التي لا يمكن أن

---

(٦) او تمام . الحماسة (المرزوقي) ١/٢٥٦–٢٥٧ وفي روايتها وعدد ابياتها اختلاف .

تحصر فيها المشاعر ، وتُخضعُه الى رتابة الصنعة التي تقتل فيه الأبداع الفنّي ، وتُصلّب في شرايينه تدفق الحياة الذي ظل نابضاً بها طوال حياته المديدة .

وإذا كانت بعض المقولات قد حدّدت هذا الاتجاه ، وانتهت الى النتائج أو المُسلّمات فانني اعتقد أن الباحث المتأمل يجب ان يكون حذراً في قبول هذا الرأي ، ومُتأنّياً عند التحدّث عنه ، لأسباب كثيرة منها ما يتعلق بعدم وجود إحصائية دقيقة تعطي هذا الاتجاه صحته في الدقة ، وتقدم للباحث كشفاً بما انتهت اليه كلُّ قافية ، وكلُّ وزن وكلُّ غرض ومدى الجودة التي اكتسبتها القصيدة في مسيرتها ومكانتها في موازين النقد وقبولها في التقويم النقدي ، وهذا وحده يمكن أن يكون بدايةً للدراسة تحليلية للمقولة التي يمكن أن تقال في هذا الباب ، أو اعتمادها اساساً في الدراسة ، لأن الذهابَ وراء هذه المقولات دون الوقوف على أصولها والقول بها دون التأكد من صحتها توقع الباحثين في مزالق خطيرة ، وتدفعهم الى أن يبنوا احكامهم على وفق اعتبارات غير منطقية ، وهذا ما جرى العُرف عليه حتى اوشكنا أن نُعدَّ هذا الحديث من باب الأمور التي انتهت المناقشة بشأنها وأصبحت من البديهيات المعروفة ويبقى الشعراء في هذه الحالة مجرد أشخاص يُحسنون اقتناص الوزن المناسب الذي يجدون فيه ملاءمة ليحصُروا مشاعرَهم ويُسرّبوا من خلاله احاسيسهم .

وقد حاولت ان اقف عند وزن شعري تنتهي قافيته براء مضمومة ونظم فيه مجموعة من الشعراء وكانت قصائدهم على الرغم من اختلاف اغراضها متميزة وخالدة . . فأبو صخر الهذلي له قصيدته التي يقول فيها (٧) :

أما والذي ابكى واضحك والذي   امات واحيا والذي أمره الأمر
لقد تركتني أغبطُ الوحش أن أرى   أليفين منها لا يَروعُهُما الذُّعْر

---

(٧) ابو صخر الهذلي . شرح أشعار الهذليين ٢/٩٥٧ .

وصلتُك حتى قُلتِ لا يَعرف القِلى   وزُرتُك حتى قُلت ليس له صبرُ
صَدَقتِ أنا الصبُّ المُصابُ الذي به   تباريُح حبٍّ خامرَ القلبَ أو سحرُ
فيا حبذا الأحياءُ ما دُمتِ حيَّةً   ويا حبذا الأموات ما ضَمّكِ القبرُ

الى ا ن يقول (٨):

ويا حُبَّها زِدني جوًى كُلَّ ليلةٍ   ويا سَلْوَةَ الأيامَ مَوعِدُك الحشرُ
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها   فلما انقضى ما بيننا سكن الدهرُ

وهي قصيدة لها صداها في نفوس المتلوقين من عشاق الأدب والدارسين الذين وجدوا في اباتها عاطفةً لا تخبو وحالة لا تنتهي وصورةً لاتفنى ، فعلقت في النفوس ابياتاً خالدة ، وعاشت في القلوب حالة مستديمة يستشهد بها العشاق كل ما وجدوا المجال للاستشهاد لازماً والمرحلة لاختيار الابيات مناسبة . . . وينظم ابو تمام قصيدته في رثاء محمد بن حُميد الطائي التي مطلعها . . . (٩)

كذا فَليَجِلَّ الخطبُ وَليَفدَحِ الأمرُ
فليسَ لعَينٍ لم يَفضْ ماؤها عُذْرُ
توفيت الآمالُ بعدَ مُحَمَّدَ
وأصبح في شُغْلٍ عَنِ السَّفرِ السَّفْرُ
فتى كُلَّما فاضت عيونُ قبيلة
دماً ضَحِكَتْ عنه الأحاديث والذكر
فتى مات بين الضرب والطعن ميتةً
تقومُ مَقَامَ النصر إن فاتَه النصر
وما ماتَ حتى ماتَ مَضربُ سيفه
من الضرب واعتلَّتْ عليه القنا السمرُ

---

(٨) المصدر نفسه ، ٢/٩٥٨ .

(٩) ابو تمام . الديوان ٤/٧٩ ــ ٨٠ .

الى آخر الابيات التي تعد من غرُر المراثي وعيون الشعر العربي ، وقيل في روعتها ما قيل . ودرست ابياتها دراسات مستفيضة وقفت عند صورها واشارت الى تمجيد بطولة هذا القائد العربي الذي وجد فيه الشاعر رمزاً من رموز التحدي لكل الحركات المناوئة لسلطان الدولة العربية . وليس المجال هنا مجال تقويم لهذه القصيدة ولكن الصورة التي قدمتها وهي تنظم على وزن البحر الطويل وقافية الراء المضمومة التي نظمت عليها قصيدة ابي صخر الهذلي فكانت فريدة في بابها كما كانت قصيدة ابي صخر فريدة في غرضها وخلودها. ومثل هاتين القصيدتين كانت قصيدة ابي فراس الحمداني : (١٠)

اراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر   أما للهوى نهيٌ عـَليك ولا أمر

وهي قصيدةٌ لا أرى نفسي ملزماً بذكر أبياتها وقراءة غررها فقد اخذت حجمها في الموروث الشعري والغنائي والعاطفي واستشهد بها في مواضع عزيزة ونادرة . .

إن هذه النماذج الثلاثة التي اخترتها لاغراض ثلاثة تمثل خطورة الاعتقاد بان الاوزان الشعرية يمكن أن تتحكم في الاغراض أو ان القوافي يمكن ان ترسم طريق الاختيار للموضع الذي يريد ان يطرقه .

ان قدرة الكلمة التعبيرية وجرسَها الموسيقي الذي تؤديه منفردةً ومجتمعة قد وُهبت اللغة العربية خصائص اوشكت أن تجعل منها لغة شاعرة ، وتودع في مضامينها من الأبداع ما جعلها لغة موحية بحروفها وتراكيبها وتكرار الفاظها، وتجدّد موسيقاها التعبيرية ومقاطعها التي تؤدي كل هذه الوظائف بنغمٍ وانسجام يوحي بالتناسق والتوافق والانتظام . واذا كانت اغراض الشعر نابعة من الوجدان ، ومعبرةً عن الذات الكامنة في اعماق الانسان فمن الطبيعي أن تكون هذه الأغراض كفيلة باختيار دلالات محدّدة ، ورهينة بالفاظ

---

(١٠) ابو فراس . الديوان / ١٥٧ .

وتعابير تتناسب مع الحالة التي يكون عليها الشاعر لتأتي العبارات مؤكدة الحسّ الشعري ، ومعبرةً عن الحالة التي يمر بها الشاعر أو تشعر بأنها أدّت المهمة التي تصاحب ولادة القصيدة عفوية إذا كانت معبرة وغير مقيدة مسبقاً بوزن ، أو مهيئة لتوضع في إطار قافية رُسم لها أن تكون حدوداً لنهاياتها . فالحالة الشعورية والدلالة اللفظية والمناسبة و الكلمات التي تتراكم في ذهن الشاعر ، وايحاءات الصورة التي تثير في دواخله الأحساس هي الحوافز الرئيسية التي تُحدّد له المسار ، وتضع الشاعر في طريق الابتداء ، وتترك لكثافة التعبير أن تسرب احساساً ، وتتناغم وزناً وقافية لتعطي الصورة المطلوبة ابعادها المناسبة ، وتترك للذات الشاعرة أن تكون قادرة على استيعاب الزخم العاطفي الذي خلقته حالات المعاناة الصادقة ، وحفزته مظاهر التواجد الداخلي لنزعات الشوق مهما كانت حالاتها ، وتعدّدت مظاهرها .

فالعواطف هي التي تضع الشاعر على طريق القصيدة وتهيْ له من المناسبة والمقاطع النغمية المحكمة التي تحقق له التعبير المطلوب .

وشعر الحرب الذي امتزجت به كل العواطف ، وتحركت في داخله كل الاسباب ، المثيرة واستجابت له كل النوازع الحادة يمثل حالة من الحالات التي يمر بها الشاعر ، وتجربة من التجارب التي تصادفه وهو يواجه موضعاً انفعالياً مؤثراً ، ويقع تحت تأثير أسباب موجبة للتعبير او التأثر وبما ان حالة الحرب هي حالة غير طبيعية بسبب مضاعفاتها النفسية والاجتماعية وما تثيرها في النفس من أحاسيس ومشاعر وتخلقه من نتائج وتتعرض له من احداث فان الانفعالات التي تتولد من جرائها تكون رهينة بهذه النتائج وكفيلة بالتوقعات المنتظرة لكل حالة طارئة أو مفاجئة ، ولم تكن صورة الحرب واحدة في التأثر أو متشابهة في رد الفعل المعاكس ، لأن طبيعة الحروب تخلق اجواءً متفاوتة من حيث التعبير والأداء ، فالحرب التي تقوم على اساس الدفاع عن الارض والانسان وحماية الشرف والكرامة وصد الزحف وايقاف التجاوز الظالم واسقاط التحدي

الاهوج" هي حرب لها صورتها الكبيرة في حياة الناس ولها تأثيرها الواعي في تصرفات الجماهير ، ولها ابعادها التي تتحرك فيها لخلق الوعي المناسب وتهيئة المستلزمات الضرورية لردّ الاعتداء ودفع المخاطر والتنبيه الى النتائج الوخيمة التي يمكن ان تخلقها مثل هذه الحرب ، والشعراء الذين يعيشون هذه الحالة لا ينفصلون عن مجتمعهم ولا يبتعدون عن الصورة الكبيرة التي تظل واضحة المعالم في عيون الجميع ، ولا يمكن أن يكونوا غرباء على هذه المواجهة التي تحرك في دواخل الجميع نزعات رد الاعتداء واستثارة اسباب المقاومة وتوثيب الدواعي الموجبة وتوجيه الحشد الجمعي لما ينفع المسيرة الكبيرة التي تضع هذه الجماهير في المحيط المرسوم لدورها الطبيعي . وهذه الحالة تضع الادباء في الموضع الريادي لمهمة القيادة والتوجيه لأنهم يملكون الوسائل الكفيلة بالتحريك والقدرات الحافلة باسباب التهيؤ ، واذا كان شعر الحرب قد عبّر عن بعض الوجوه القليلة التي عايشها المقاتلون ، واذا كانت بعض الصور قد التقطت لمعارك حاسمة من تاريخ الامة ، واذاكان بعض الشعراء قد احسنوا صياغة اللوحة الحربية الدقيقة ، لانهم شاركوا مشاركة فعلية في تحديد ملامحها فان شعر الحرب الذي قدم خلال الفترة الزمنية التي يخوضها قطرنا المناضل ، كانت لوحة جديدة في كثير من ألوانها وزهوها ، تعابيرها والفاظها ، صورها وتراكيبها ، صدقها واحاسيسها ، لانها كانت لوحة حقيقية تعاونت على تخطيطها أيادٍ تمسك الزناد وتقود الدبابة وتطارد الفلول المنهزمة وتقاوم في الخندق المتقدم وتفترش الساتر الترابي أو ترصد الممر المائي أو تقود السمتية المطاردة والمقاتلة المنقضة والمدفع الحارق . والراجمة اللاهبة . . وان هذا التخطيط قد اعطى اللوحة عبارتها الدقيقة وصورتها المتطابقة وحركتها المناسبة حتى اوشكنا ان نفرد للحرب لغة متميزة ومقاطع متخصصة وايحاءات لم يسبق لنا أن وجدناها في شعر الحرب الذي تعودنا على سماعه . وان لغة الشعر هذه لم تعد مقتصرة على الابيات والقصائد وانما اصبحت

هي اللغة التي يكتب بها القاص قصته والباحث دراسته والصحفي مقالته وان هذه اللغة الموحدة التي عبرت عن حالة التضحية الفريدة والبطولة النادرة والقدرة الجريئة أصبحت مفرداتها مبثوثة في كل لوحة ادبية من لوحات التعبير وفي كل حالة من حالات الزهو الخالد الذي تعيش لحظاته في الضمير والوجدان والتصور ، واسهمتّ في تداولها في كثير من مفردات الحياة ولغة الجمهور التي وحدت في تراكيبها صدىً لاحاسيسها وتلمست في تعابيرها متجاوباً مع ما تحسُّه من مشاعر . لأنها لغة الجميع الذين يشعرون بوحدة الوسيلة في التعبير ، ولغة المقاومة التي توحي بكل اشارة من اشاراتها الى وحدة المصير المشترك الذي يعطي المفردة دلالتها ويحدد لها مسارها في النص . . وهي لغة موحدة وضعت اطاراً موحداً للغة الأدب فكانت تأثيراتها مباشرة في ايصال الفكرة واستيحاء التأثير واستبطان الانفعالات التي تسرب من خلال النص وقد مهدت هذه الوحدة اللغوية الى تقويم المشاعر ومشاركة الأدباء حالات المعايشة الحيّة لوقائع الحرب واوضاع المقاتلين الذين ترسخت في كثير من مفرداتهم أصوات اللغة الفصيحة وقدرة الألفاظ الأدبية التي هيأها النص . وان الشعر الذي قدم من خلال ادبيات الحرب التزم خطاً واحداً في تمجيد البطولة والاشادة بمآثر الرجال والتعبير عن المواقف الفذة في مجابهة العدوان وقدم هذا الضرب من الشعر صوراً جديدة وألواناً زاهية وزخر بالغة لها رنينها الموحي وموسيقاها النغمية النقية وقد استعملت كل البحور وإختارت معظم القوافي واستعارت الكثير من النماذج البلاغية وبقيت كثير منها فريدة في بابها رائعة في نماذجها حية في مواضع الاستشهاد بها .

ولغة الأدب الموحدة هذه بحاجة الى دراسة مستقلة تعطي المفردة استعمالها الزمني وتطورها التاريخي ودلالتها التي اكتسبتها من خلال الاستعمال ، ولا بد أن تنتهي مثل هذه الدراسة الى تقديم قائمة طويلة من المفردات التي دخلت لغة الأدب والصحافة وشاع استعمالها عند الجمهور بوضوح واتضحت قوتها

في كثرة التداول الذي اصبح سمة من سمات الحديث اليومي . ومن الطبيعي ان تكون حالة الحرب التي تعيش في وجدان كل انسان في العراق ، وصُورها التي يراها في جزئيات الحياة واثارها التي يُعبر عنها من خلال البيان العسكري أو صور المعركة أو أخبار الرجال الذين يقدمون اعزّ النماذج في البطولة والتضحية وقصص البطولة التي تروى عن تكريم الابطال من الصنوف المختلفة وهي المحفز الواضح في استمرار تنامي الوعي والتأكيد على روح النصر التي التي لازمت هذا الانســان ووضعته في الموضع الذي أنهى اسطورة التخاذل والاستسلام واكدت في نفوس الآخرين القدرة على مجابهة التحدي والحفاظ على الشخصية المتميزة ، وتمكنه من حماية نفسه وايقاف التجاوز الذي حاول ويحاول استهداف وجوده . . ان هذه الحالة التي يعيشها المواطن في العراق كانت السبب الرئيسي في المعالجة التي نراها مرتسمة على كل وجه ، وواضحة في سلوك كل فرد ، ومقروءة في كل سطر من سطور التاريخ الخالد الذي يكتب فوق ربوع هذا التراب الطاهر .

ولغة الشعر التي توجهت هذا التوجه واحتفظت بهذه الثروة اللفظية من المفردات هي لغة جديدة لم يعرفها الأدب العربي في مراحله المتقدمة ، ولم يتداولها الشعراء قبل هذه المعركة وبالصيغة التي ألفها الأدب في العراق ، وهذا وحده يشكل ظاهرة متميزة في هذا الباب ، ويعطي هذا اللون الأدبي خصائصه ويحدد له الجوانب المعنوية واللفظية التي أصبح مؤهلاً للتعبير عنها وفق الحالات الراهنة وفي اطار التعابير التي انفردت بها نصوصه ، وان هذه المحاولة في اثارة هذا الموضوع تترك الباب مفتوحاً للباحثين لأخذ أدوارهم في مناقشة كل محور من المحاور المشتركة ، والانتهاء الى صيغ نقدية جادّة تعطي هذا اللون الفني ما يستحق من عناية واهتمام .